مفهوم الأدب في النقد العربي المعاصر

الدكتور عمار زعموش
جامعة قسنطينة

مفهوم الأدب

العمل الأدبي، كما يبدو في الظاهر ،هو رد فعل للحياة بمختلف أوجهها ؛والنقد هو رد فعل للعمل الأدبي والحياة معا، فالحديث عن الأدب هو حديث عن النقد ذاته،؛لأن تحديد ماهية الأدب طبيعته وغايته تعد من ضمن ميادين النقد الأدبي وجوهره، وهي بمثابة المقدمة الطبيعية للحديث عن النقد مما يعطي الحق لهذه القضية أن تكون في مقدمة القضايا الأدبية المعالجة، ولكن ارتباطها بالموضوع ككل جعلنا نؤخرها عن الموضع الذي كان ينبغي أن تكون فيه.

وترجع أهمية هذه القضية إلى كونها تمثل محور الدراسات النقدية التي تسعى جميعها إلى تحديد مفهوم الأدب وطبيعته الفنية انطلاقا من علاقته بالواقع الخارجي،.ولاشك أن هناك صعوبة كبيرة تواجه النقاد والدارسين في البحث عن مفهوم عام وشامل للأدب، ذلك أن الأدب هو نوع من النشاط الإنساني الذي يجسد علاقات الأديب بعالمه في مرحلة تاريخية معينة، ومن ثم فإن النقاد قد يضعون بعض المقولات التي تحدد معنى الأدب في مرحلة ما ولكنهم سرعان ما يكتشفون قصورها مع تطور الحياة ،لذلك فإنه من السهل أن نورد مجموعة كبيرة من التعريفات التي وضعها النقاد لتحديد معنى الأدب، ولكنه من الصعب أن نجد تعريفا شاملا مانعا حتى إن الدكتور عزالدين إسماعيل يرى « أنه من الأفضل أن نبدأ حديثنا عن الأدب دون تعريف له ،إذ يكفي غرضنا هنا أن تترسب في نفس القارئى بعض الحقائق الخاصة بهذا الأدب التي تتصل اتصالا مباشرا بجوهره .فكل إنسان له حظ من الثقافة يعرف بصورة أو بأخرى، ما الأدب، كل ما في الأمر أن ما يعرفه هذا قد يختلف عما يعرفه ذاك أو يفترق عنه قللا أو كثيرا ولكن المؤكد أنهم جميعا يستخدمون كلمة (أدب) استخداما متقاربا -إن لم يكن موحدا- حين يطلقونها على شيء يقرأونه أو يستمعون إليه »(1).

---

(1) دعز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه دار الفكر العربي، القاهرة، ط.6 / 1976 ص 13.

فالإشكالية تبدو أكثر في الجانب التنظيري حيث يميل أغلب النقاد إلى الخروج على الأساليب المتوارثة والتعاريف المألوفة، وذلك وفق تطور الحركة الفكرية والأدبية المعاصرة ووفق المستوى المعرفي للناقد ووعيه بالحركة التاريخية، لاسيما وأن المفاهيم النقدية في العصر الحديث غالبا ما تتبلور ضمن رؤية فلسفية محددة.

إن إشكالية إختلاف النقاد في تعريفهم للأدب مرتبطة من ناحية بقضيةاختلافهم في تحديد علاقة الشكل بالمضمون وإيثارهم لجانب على آخر، ومن ناحية أخرى، باختلاف النظريات الفلسفية أو الفكرية التي يستندون إليها في تحديدهم لمفهوم الأدب وطبيعته وغايته.

وعلى كل فإن النقاد الواقعيين باستنادهم إلى العلم في إنماء رؤيتهم الفكرية قد نظروا إلى العمل الإبداعي في علاقاته بالطبيعة والمجتمع، أو كما قال الدكتور عبدالمنعم تليمة: «الفن يعكس علاقة نوعية - لنقل علاقة جمالية- بين الإنسان وعالمه الطبيعي والاجتماعي أي أنه -الفن- صياغة للعلاقة بني الإنسان و(واقعه) بالمعنى الشامل السالف ولا يعكس الفن (صورة) هذا الواقع وإنما يعكس حركته، وكما أن الواقع متغير أبدا فإن (نموذجه) في الفن متغير كذلك»(2) .فالأدب كما هو معروف - هو أحد مظاهر الفن المتعددة، وكل ما يقال عن الفن يمكن قوله -أيضا- في الأدب من حيث الماهية والغائية، وإن كان الأدب يتميز عن الفنون الأخرى بوسيلته المتمثلة في اللغة، وهو كما يرى الدكتور عبدالمنعم تليمة يستند إلي ما سماه النقاد الواقعيون بنظرية الانعكاس التي تكشف عن علاقة الأديب بواقعه وبمجتمعه فتعكس حركة هذا الواقع كما تراءت في وعي الأديب من خلال تفاعله معه، لذلك فإن «الفن صورة من صور الوعي الاجتماعي وظاهرة من الظواهر الثقافية، وهو يخضع في تطوره - للقوانين العامة السابقة في علاقة الوعي بالوجود، فكل نظام اجتماعي يبدع ما يعبر عن حقائق وجوده وطبيعة علاقاته والذي يفسر التطور الفني هو أن كل انتقالةمن انتقالات هذا التطور إنما تعبر عن وجود اجتماعي لمجتمع محدد في مرحلة من مراحل تاريخية» (3) .

(2) د.عبدالمنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب ، دار العودة، بيروت ط2 / 1979 ص 52.
(3) م.ن.ص.114

والواضح أن هذا الفهم للأدب ينطلق من النظرة التي تفسر العمل الأدبي على أساس علاقته بالواقع الخارجي باعتباره نتاجا اجتماعيا يعكس حقائق المجتمع ويكشف عن الظواهر المتحكمة في بنائه، ومن ثم فإن هذا الاتجاه يرجع الظواهر الفنية إلى مصدرها الأساس وهو الواقع بجوانبه المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك، وهذا لا يعني أن النقد الواقعي يهمل الجانب الفني في تحديد،ه للعمل الأدبي بل إنه ينظر إليه من نواح ثلاث وهي: «الأداة ،الماهية، والمهمة» .وفي ضوء ذلك يرى أن تحديد معنى الأدب يجب أن يتم وفق هذه العناصر الثلاثة بحيث يكون كما يقول الدكتور عبدالمنعم تليمة: «إن الأدب فن (لغوي) إذا كنا نسنده إلى (أداته) ونعرفه بها لكنه نشاط إنساني - يعكس حركة واقع تاريخي اجتماعي محدد عكسا خاصا - إذا نظرنا إليه من جهة (ما هيته) و(مهمته) ،وبدهي كذلك أن درس الأداة جليل الفائدة في بيان ماهية الأدب ومهمته ذاتهما. بل إن درس الأداة إنما هو عماد الدرس الأدبي وأساسه. كما أن أداة الأدب - اللغة- إنما تتضمن سياقا تاريخيا واجتماعيا .(4) فالمعايير الأدبية أو الفنية التي من ضمنها الصياغة اللغوية تعدأساس الأدب وبها يتم التمييز بين العمل الأدبي وغيره من الأعمال الأخرى التي تشترك مع الأدب في استعمالها للغة كوسيلة لنقل الأفكار والمعاني، غير أن تلك المعايير الفنية وحدها لا تكفي في تحديد قيمة الأدب وعظمته فهناك جوانب أخرى تتدخل في تكوين العمل الأدبي وفي تحديد قيمته وأهميته لذلك فإن مفهوم الأدب في النقد الواقعي يتم ضمن «الرؤية الحضارية الشاملة للعالم» بحيث يكون في النهاية كما يقول الدكتور غالي شكري:

«العمل الأدبي هو جماع ذات الأديب من ناحية وموضوعية العالم من ناحية أخرى والتراث الأدبي من ناحية ثالثة فإن الدلالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، تدخل في الجزء الخاص بموضوعية العالم، أما ذات الفنان فهي تحمل إلينا دلالات تكوينه النفسي والذهني وملكته الإبداعية الخالقة وتاريخه الشخصي إلى غيرذلك من العوامل الذاتية الصانعة

---

(4) د.عبدالمنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب ص 120

للأديب، أما التراث الفني فيشمل التقاليد التي انحدرت إلى الأديب ومرحلته التاريخية من مختلف الأجيال السابقة(5)، وإن كنا لا نوافق الدكتور غالي شكري في هذا التصنيف الثلاثي ،لأن الإشكالية كما تبدو لنا تنحصر في عنصرين أساسيين، هما: الذات والموضوع .ومن خلال انتقاء العنصرين وتفاعلهما تتم العملية الإبداعية الأديب بحيث لا تكون الذات المصدر الرئيسي للمعرفة أي تسقط من خلالها ذواتنا على الواقع فنكشف ما في الذات عبر الواقع .وليس الواقع هو الذي يحقق لنا الكشف المعرفي من خلال تأكيدات عقلية نبحث عنها في الواقع ذاته، وإنما يتحقق الكشف المعرفي عبر هذه العلاقة الفاعلة المترددة بين الذات والموضوع(6)، وبذلك يكون «التراث الفني» ضمن مكونات ذات الأديب ،فبدون «التقاليد الفنية» التي يستمدها من التراث لا يستطيع أن يبدع شيئا ،ومن ثم فإن الأدب ،كما يقول محمود أمين العالم: «انعكاس جدلي يتضمن وقائع الحياة كما يتضمن فاعلية الإنسان وموقعه وموقفه من هذا الواقع، إنه حصيلة فعل وتفاعل ليس انعكاسا لتفاصيل جزئية بل هو انعكاس لمصلحة أنشطة وعلاقات ومواقف(7) وما دام الأدب ليس إنعكاسا آليا للواقع، بل هو خلق يستند في إبداعه إلي المواد والعناصر الموجودة فعلا في الواقع، فإن الخلق أو الانعكاس الفني للواقع يعني تدخل ذات الأديب في اختيار المادة وفيالصياغة الفنية لها، وبالتالي فإنه يكشف عن رؤيته لهذا الواقع وعن موقفه منه لذلك فإن الواقعية ،رغم تأكيدها على أهمية الجانب الفني في العمل الأدبي وفي تحديد مفهومه، فإنها لا تنظر إلى هذا الجانب منفصلا عن المضمون الذي هو غايتها ؛أما الشكل الفني فهو سلاحها الذي يمكنها من التأثير في الوجدان وتحقيق هدفها.

وانطلاقا من ذلك ما لت أغلب تعريفات النقاد الواقعيين للأدب إلى التركيز على المضمون أو بمعنى آخر البحث في وظيفته وعلاقته بالواقع

---

(5) د.غالي شكري: ماذا أضافوا إلى ضمير العصر. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة 1967 ص 168.

(6) كريم الوائلي: المواقف النقدية بين الذات والموضوع العربي للنشر والتوزيع القاهرة، 1986 ص 123.

(7) محمود أمين العالم: (ملاحظات حول نظرية الأدب وعلاقتها بالثورة الإجتماعية) مجلة «الثقافة والثورة» ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ع.10 / 1983 ص 5.

الخارجي بدلا من النظر إليه كشيء متميز مستقل بذاته، ذلك أن «ماهية الأدب» عندهم تتحدد في انعكاس حركة الواقع الاجتماعي الشيء الذي جعلهم يركزون على غائيته أو مهمته ما دامت طبيعة العمل الأدبي هي إظهار هذا الواقع في صورة جديدة مختلفة عن الواقع الحقيقي بما يضفيه الأديب من قيم وعناصر جمالية مؤثرة وبما يضمنه من أفكار وتجارب تشكل موقفه وتحدد رؤيته له، فهو كما يقول الدكتور محمد مصايف: «إن الأدب كسائر الفنون التعبيرية الأخرى ليس إلا وسيلة لتشخيص موقف الفنان من الحياة ،والموقف من الحياة ليس من الضروري أن يكون اجتماعيا أو عقائديا دائما، بل قد يكون إنسانيا وقد يكون دينيا وقد يكون غير ذلك ،المهم هو أن الأديب لا يعبر من أجل التعبير فحسب ،بل يعبر لأنه يريد أن يقول شيئا وأن يقوله بطريقة فنية تقنع الناس وتجعلهم يتبنون موقف الأديب من الحياة، أو من هذا الشيء الذي يعبر عنه (8)، فالقضية كما تبدو هي قضية العمل الأدبي في صورته الكلية، حيث لا تنفصل النظرة الجمالية عن النظرة الاجتماعية ذلك أن الأدب كما يقول محمد مصايف: «ظاهرة اجتماعية وحضارية بالدرجة الأولى، وفي هذا الإطار المزدوج أدرسه غير متغافل عن جانبه الفني والتقني »(9) لأن هذا الأخير هو الذي يضفي عليه صفة الأدب ويجعل مهمة الأديب تتسم بالصعوبة لما تتطلبه من قدرة في إخضاع التجربة للصياغة الفنية والتحكم في أحاسيس الأديب وانفعالاته الوجدانية.

ففي العمل الأدبي تبرز قدرة الأديب وعبقريته في تحقيق التوازن والانسجام بين الشكل والمضمون من ناحية، وبين الذات والموضوع من ناحية أخرى بحيث لا يمكن الفصل بينهما نتيجة سيطرة الأديب على موضوعه ووسائله الفنية، ومن ثم فالأدب كما يقول محمد مفيد الشوباشي: «تصوير فني لنماذج ثورية يتخيرها الكاتب الأديب، ويفسر بوساطاتها العالم عن طريق النموذج الخاص» (10)، فهو يرى أن العمل الأدبي لا يستحق هذه التسمية إلا إذا تميز «بجمال الصورة وتألق الأسلوب» لذلك نجده يرفض تساهل

---

(8) د.محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب ش.و.ن.ت الجزائر 1981 ص 30

(9) م.ن.ص.36

(10) محمد مفيد الشوباش: الأدب ومذاهبه عن الكلاسيكية الإغريقية إلي الواقعية الاشتراكية الهيئة العامة للتأليف والنشر دار الكاتب العربي القاهرة 1970 ص 99.

بعض النقاد الواقعيين في هذا الجانب يدعو الأدباء إلي الإلمام الكامل باللغة وبعناصر الأدب وخصائصه الفنية:

وعلى كل فإن الباحث يمكن له أن يجد العشرات من المقولات التعريفية للأدب مبثوثة في كتابات النقاد الواقعيين، وقد تستهويه تلك التعاريف أثناء قراءتها لما تثيره من دلالات تبدو مختلفة ،غير أن المتمعن فيها يجدها تكمل بعضها، ورغم ذلك تظل هذه التعريفات ناقصة لأنها ترتبط في أغلب الأحيان بالظروف العامةللمجتمع وتعكس مستوى وعي الأديب ومدى تمكنه من الإدراك المعرفي ،فالنتاج الأدبي يخضع لحركة تطور المجتمع لوعي الأدباء لهذه الظروف التي تسهم في جعل الأدب ليس مجرد انعكاس لأحداث الواقع بل استشراف لآفاق المستقبل.

إن الأدب وفق هذا التصور المتكامل الناتج عن العلاقة المتبادلة بين الصياغة والتجربة باعتبار التجربة كما يعرفها الدكتور جابر عصفور: «هي نتاج لتفاعل عالمين هما: العالم الداخلي الذاتي والعالم الخارجي أو الحياة المحيطة بالشاعر» (11) لا يعدو أن يكون «صياغة فنية لتجربةبشرية» (12).

إن الصياغة الفنية أو عملية الكتابة الإبداعية شيء ضروري في العمل الأدبي لأنها هي التي تكشف عن عناصر التجربة وتجسدها فالصياغة كما يتفق أغلب النقاد تختلف من أديب إلى آخر، فلا وجود لصياغة نموذجية يمكن أن يتبعها الأدباء ويسيرون على هديها؛ يقول إيليا أهرنبورغ: «إن ما يوحد الكتاب السوفيات هو حبهم لمجتمعنا الاشتراكي والإيمان بمستقبله ولكن لكل منا موضوعاته المفضلة وأسلوبه المتميز وتجربته الذاتية المتفردة (13)، أما التجربة فهي التي تثير الإشكالية لتنوعها حيث يميل قسم من النقاد إلى حصرها في التجربة الشخصية التي تصدر عن معاناة حقيقية للأديب وهي التي توفر عنصر الصدق في عمله وتبعده عن التكلف والافتعال بينما يرى النقاد الواقعيون أن هذا التحديد لنوعية التجربة يحصر مجال الإبداع في مجال

(11)دجابر عصفور: (نقدالشعر عندمحمد مندور)مجلةالكاتب ع186سبتمبر 1976ص 13.

(12)دمحمد مندور: الأدب ومذاهبه دار النهضة مصر للطبع والنشرالقاهرة 1979ص 09

(13)إيليا أهونبوز غ وآخرون: دراسات معاصرة ترجمة جودت إسماعيل وآخرين مديرية الثقافة الكردية بغدا،1975ص 14.

واحد وهو التعبير عن الذات الفردية، لذلك اتجه هؤلاء النقاد إلي توسيع مفهوم «التجربة البشرية» لتشمل ألوانا أخرى يتسمدها الأديب من مجتمعه ومن تجارب العالم الإنساني ؛يقول محمد مندور: «إن الأدب لا يمكن أن يقتصر على العبارة عن التجارب الشخصية كما أن الأديب ذا الخيال الخصب الخلاق أو ذا الملاحظة الدقيقة النافذة يستطيع أن يخلق بخياله تجارب بشرية قد تكون أعمق صدقا وأكثر غنى من واقع الحياة كمايستطيع بقوة ملاحظته أن يصوغ تجارب للغير يستمدها من محيطه الإنساني ومع ذلك لا تقل صدقا ولا مشاكلة لواقع الحياة الإنسانية العام عن تجاربه الخاصة، وذلك لما هو معلوم من أن الخيال والملاحظة يستطيعان أن يلتقطا ملامح الحياة وخصائصها وأن يؤلفا بينها على نحو يكاديكون خلقا للحياة وأشد مشاكلة لها من التجارب الشخصية (14) فمحمد مندور كما لاحظنا يوسع مفهوم التجربة لتمتد إلى كل ما ينفعل به الأديب أو تقع عليه حواسه أو يتصوره خياله بحيث تكون المعايشة الوجدانية أساس الإبداع الأدبي وليس المعايشة الحقيقية وإن كانت هذه الأخيرة تبقى أكثر أثرا في توجيه التجربة وإبرازها لارتباطها بالواقع وبالعصر على أن ذلك لا يعني خلو التجارب الأخرى- التاريخية أو الاجتماعية- المنعكسة في العمل الأدبي من شخصية الأديب ،فالأدب سواء أكان ذاتيا أم موضوعيا لايخلو في حقيقته من شخصية الأديب ومميزاتها وإن كان «الأدب الاشتراكي» غالبا ما يطغى فيه الجانب المجتمعي (الجماعي) على الجانب الفردي باعتبار الفرد الأديب جزءا من المجتمع يسعى إلى تمثل فنيا وفكريا وخلقيا قيم الإشتراكية ومثلها مجسدا نزوع الإنسان وطموحه نحو عالم تسود فيه المساواة والعدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

إن العمل الأدبي كما يذهب الدكتور عبدالمحسن طه بدر «يتكون من عناصر ثلاثة: أولها الذات المبدعة، وثانيها صور الحياة التي يطرحها الواقع أمام الأديب في الإطار الاجتماعي الذي يعايشه سواء أكانت هذه الصور مطروحة أمامه بالممارسة أو مكتسبة من التراث الثقافي المتاح في بيئة الأديب، أما العنصر الثالث فهو الذي يحدد العلاقة بين الذات والموضوع وهو الذي يتحكم

---

(14) د.محمد مندور: الأدب ومذاهبه ص 10

في اختيار الأديب لموضوع من الموضوعات التي يطرحها عليه الواقع دون غيره من الموضوعات كما يتحكم في اختياره للزاوية التي يعالجه منها، وهذا العنصر الثالث الذي يمثل طبيعة العلاقة بين الذات والموضوع ويحكمها، يمكن أن نسميه موقف الأديب من الواقع ولأن لفظ موقف قد يحدث نوعا من الالتباس بين موقف الأديب وما يسمي (بوجهة نظر المفكر) فسنختار لهذا العنصر الثالث مصطلح (الرؤية) وهو مصطلح يساعدنا كثيرا إذا فهمنا من مصطلح (الرؤية) المعنى المعنوي لا المعنى المادي (15) إن المتمعن في مفهوم الدكتور عبدالمحسن طه بدر للعمل الإبداعي يجده لا يخرج عما ذكرناه آنفا، فهناك ذات الأديب وهناك الموضوع أو الواقع الخارجي الذي يحوي «صور الحياة» بمختلف أشكالها ،أما العنصر الثالث الذي فضل تسميته «بالرؤية» وأراد بها المعنى المعنوي فإنها أيضا ترتبط بالذات والموضوع أي أنها نتيجة لتفاعله بالواقع ووعيه للحركة التاريخية وتبقى الرؤيا بالألف غير الرؤية بالتاء، فالأولى ترتبط بالإبداع بوصفه نوعا من الخلق الفني الذي يكون عالمه الخيالي مخالفا بوجه من الوجوه لهذا العالم الذي نحيا فيه. أما الرؤية فتقترن بعملية الإبصار، وبذلك تكون الأولى هي التي تتحكم في علاقة الذات بالموضوع وفي كيفية بناء العمل الأدبي وغايته.

وعلى كل فإن الدكتور عبدالمحسن طه بدر يؤكد ما ذهب إليه محمد مندور في أن الأدب «صياغة فنية لتجربة بشرية» ويرى أن هذا المفهوم الذي ينظر إلي الأدب كتجربة إنسانية يساهم مساهمة فعالة في الكشف عن مشكلاتنا وتحديدها (16)» كما يوسع من دائرته ليشمل مختلف مجالات الحياة، فهو كمايقول: «رحب رحابة الحياة الإنسانية نفسهابما تحفل به من صراع وتضارب ،من متناقضات تنشأ عن الصراع بين رغبة الذات وبين شعورها بالمسؤولية ،وما يستقر في أعماق هذه الذات من دروب ومنحنيات والتواء وتعقيد ؛وبذلك يكون كل موضوع من مواضيع الحياة صالحا لأن يكون موضوعا للأدب »(17)

---

(15) د.عبدالمحسن طه بدر: الرواني والأرضدار المعارف بمصر القاهرة ط2 / 1983 ص 5

(16) د.عبدالمحسن طه بدر: حول الأديب والواقع دار المعارف القاهرة ط2 / 1981 ص 18

(17) م.ن.ص.ن

بمختلف جوانبها بما فيها العالم الذاتي للأديب، لأن الذات هو المنطلق الحتمي له ولكن تعمق الأديب الواقعي للحقيقة الذاتية يجعله يسعى إلى ما دام الأدب في مفهوم النقد الواقعي هو تعبير عن الحاية أو «التجربة الانسانية»الاقتراب من الآخرين فيحس بآلا مهم وقضاياهم وطموحاتهم ونتيجة لتلك العلاقة المفترضة في العمل الأدبي يطح النقاد الواقعيون إشكالية هذه العلاقة من زاويتين أساسيتين هما: علاقة العمل الإبداعي بالفرد ثم علاقة الفرد بالمجتمع.

1-علاقة العمل الإبداعي بالأديب أو الفردية: إن الواقعية في الأدب تعني التصور الموضوعي للواقع ولكن ذلك لا يتم بمعزل عن ذاتية الأديب ورؤيته بعيدا عن مشاعره وأحاسيسه فالأديب وهو يختار موضوع عمله الفني هو في حقيقته يكشف عن وجهة نظره وبالتالي يعبر عن فرديته المتميزة من خلال موقفه تجاه قضايا الواقع، وبما أن الفن كما يقول الدكتور عبدالمحسن طه بدر: «اختيار إرادي من الواقع... فإن هذا ينفي عن الفنان كونه مجرد أداة لتلقي الوحي من قوى غيبية كما ينفي عنه أيضاعرضة لفيضان تلقائي لشعور لا إرادي وفجائي أوأنه يقع ضحية لطغيان اللاشعور على الشعور» (18) كما أنه يبعد أيضا الكتابة تحت الأوامر أيا كانت ،فالأديب وهو يمارس العملية الإبداعية ينطلق في رؤيته للواقع من خلال مجموعة من القيم والمعايير التي كونها لنفسه انطلاقا من وضعه الطبقي الاجتماعي والثقافي ومن ثم فهو ويتحامل مع الواقع وفق هذه الرؤية المتشكلة عنده وهي قابلة للتطور والتعديل كلما اتسعت تجربته الفكرية والفنية، لاسيما وأن الأديب يتسم بذكائه وقدرته على تجاوز المظاهر السطحية للقضايا والغوص في أعماقها.

إن الواقعية الاشتراكية وهي تتطلع إلي المستقبل انطلاقا من الحاضر لا تقف حائلا دون الرؤية الذاتية للواقع والحياة، بل تسعى إلي إزالة كل ما يعيق تطور فردية الفنان، فأغلب الدراسات الجمالية للنقاد الواقعيين الإشتراكيون قد أكدت حرية الإبداع الفردي وعدم التزامه إلا بما يؤمن به حقا وصدقا،فليس

---

(18) د.عبدالمحسن طه بدر: الروائي والأرضص .27

صحيحا أن الواقعيةالاشتراكية تفرض على الأدباء الدفاع عن فلسفتها دون اقناع منهم، ذلك أن الواقعي يؤمن بأن الحقيقة لا تكتشف إلابحرية المناقشة وإبداء الرأي ،وأن المعرفة لا تتقدم إلا بتعبير الأفراد عن أفكارهم الجديدة، وإذا كانت الواقعية قد عرفت في بعض مراحل تطورها نوعا من الفرض القسري ،فهذا لا يعود إليها بقدر ما يرجع إلي بعض القادة السياسيين ،فالمفكر والمبدع لا يقبلان أبدا بفرض تجاربهما الفكريةوالفنية بقوة القانون لأن ذلك يسنعكس عليهما أيضا.

فالفرد هو المخترع والمكتشف والمبدع ،ومن ثم فهو صاحب المصلحة الأولى في حرية التفكير والتعبير.

وفي ضوء ذلك دعا روجيه جارودي (19) إلي ضرورة توسيع مفهوم الواقعية ليشمل جوانب أخرى من الحياة كانت بعيدة عنه لأن الواقعية عنده هي الوعي بالمشاركة في خلق وتجديد الإنسان والحياة بشكل مستمر.

إن الواقعية الاشتركية وإن كانت تولي أهمية كبرى للجانب الاجتماعي في العمل الأدبي فإنها لا تهمل الفرد باعتباره الركيزة الأولى في بناء المجتمع ومصدر الإبداع الفكري والأدبي ومن ثم فهي تنظر إلى العمل الأدبي بوصفه تعبيرا عن وعي الكاتب في علاقاته بجماليات عصره وبقيمه المعرفية.

ب-علاقة العمل الإبداعي بالمجتمعغير أنه من الواضع أن الأديب الفرد وهو يعضر رؤيته للواقع يكشف عن علاقاته بالمجتمع باعتباره جزءا منه يتأثر به ويؤثر فيه فالأدب كما يقول محمود أمين العالم: «إبداع ذاتي فردي ولكن ذاتيته لا تنفي اجتماعيته فالأديب في تعبيره الصادر عن وعي أولا وعي عن تلقائية إلهام خالصين أو ممزوجين بتخطيط وقصد إنما هو في حياته وإبداعه محصلة لعلاقاته الاجتماعية (20) فمما لا شك فيه أن الأديب يتأثر بالحياة الخارجية المحيطة به والقائمة في مجتمعه وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع

(19) انظر: روجيه جارودي واقعية بلا ضفاف ترجمة حليم طومسون دار الكتاب العربي القاهرة 1968 ص 226.

(20) محمود أمين العالم: (ملاحظات حول نظرية الأدب...) مجلة الثقافة والثورة ص 7

ولا يمكن لإنسان أن يعيش معلقا في الفراغ خارج حدود الزمان والمكان... يقول الدكتور عبدالمحسن طه بدر: «يعيش بالضرورة في مجتمع معين، وفي ،ذلك أن الأديب الفرد هو ثمرة للعلاقات والقوى المنتجة في المجتمع فهو كما المراحل الأولى من حياة كل فرد منا ،أديبا كان أو غير أديب ،يكون هذا الفرد في مرحلة التلقي من إطاره الاجتماعي عجينة طرية قابلة للتشكيل مجرد مستقبل لكل ما يطرحه عليه إطاره الاجتماعي من قيم ويبدو المجتمع في هذه الفترة المسؤول الأول عن تشكيل نفسيات أفراد ه وتكوينهم وهو لا ينقل إليهم مجرد قيمه التي يتعامل بها والتي تلخص تاريخه الحضاري ،ولكن ينقل إليهم أيضا تناقضاته بل ومدى إرادة التغييرفيه ودرجة وعيه» (21).

وإذا كان الفرد العادي يبقى يعيش ضمن إطار القيم التي تلقاها من مجتمعه ولا يحاول تخطيها فإن الأديب بذكائه القوي ورؤيته العميقة «دائم الانفعال والتوتر لا يستطيع ولا يملك العيش في هذا الهدوء المستسلم هو دائم التوتر والانفعال ومعنى انفعاله أنه دائم المراجعة لقيمه وأنه في احتكاكه بالآخرين يجد دائما ما يسخطه وقد يجد ما يرضيه وهو في مواجهة عالمه دائم الدهشة، دائم الاكتشاف أن قيم مجتمعه لم تعد متماسكة... وكلماتعاظمت درجة انفعال الأديب وسيطرته على هذاالانفعال وزادت إمكانيات وعيه بانفعاله كلما تكشفت له القوى الفاعلة في مجتمعه والتي تسبب له ولغيره كل هذا التوتر كما تتكشف له أيضا القوى التي يمكن أن تزيل مثل هذا التوتر الحاد الذي يشعر به أو تخفف منه على الأقل (22)، وهو بذلك يكشف عن موقفه تجاه مجتمعه الذي هو في حقيقته وليد الظواهر الاجتماعية، ومن ثم ينتقل من التأثر إلى التأثير في المجتمع بفضل السمات التي ينفرد بها عن غيره وتتيح له القدرة على التأثير وفق الشروط الموضوعية والحاجات الاجتماعية التي تطرحها المرحلة التارخية.

لذلك فإن قيمة الأديب وأهميته ليست فيمايتمتع به من صفات فردية تميزه عن غيره من حيث تعامله مع الأحداث وإنما لما يمتلكه من قدرات تسمح له بخدمة المطالب أو الحاجات الاجتماعية لمجتمعه وعصره ومن ثم يمكن القول بأن

---

(21) د.عبدالمحسنطه در: حول الأديب والواقع ص7

(22) م.ن.ص.8

الأديب الواعي الصادق يكون تأثيره في بيئته أكبربكثيرمن تأثيرها فيه بوصفه عنصرا واعيا حرا ومسؤولا وانطلاقا من ذلك تتحدد إشكالية الأدب الواقعي في العلاقة التي تقيمها الواقعية بين الأدب والمجتمع حيث تصبح القضية هي البحث عن موقف الأديب من المجتمع وعن المضمون الاجتماعي لأعماله الأدبية ذاتها، ومن ثم عن أثرهذاالأدب في المجتمع وعن المضمون الاجتماعي لأعماله الأدبية ذاتها ومن ثم أثر هذا الأدب في المجتمع ودوره في تغيير الواقع ولا شك أن مثل هذاالأدب المرتبط بالمجتمع وقضاياه يتطلب من الناقد العودة إلى أصوله الاجتماعية لفهمه ومعرفة ظروف إنجازه رغم أن المضمون الاجتماعي للعمل الأدبي يختلف في كثير من الأحيان عن واقع الحياة في المجتمع ،ذلك أن المضمون هو تعبير عن موقف الأديب ورؤيته لهذا الواقع الاجتماعي بجوانبه المختلفة، وبما أن الأديب من خلال كشفه للقوى المتصارعة في مجتمعه تتبلور لديه الصورة البديلة التي تصدرعن رؤيته متكاملة شاملة للواقع، فإن هذه الصورة هي التي يعمل على تحقيقها في عمله الفني ومن ثم الوصول إلى تجسيدها في الحياة الاجتماعية.

إن مثل هذا النوع من الأدب المتشبع بالرغبة في البوح والكشف عن القوى الجديدة الفاعلة في المجتمع لا يكتفي بالتعبير بل يتجاوزه إلى الفعل وإن كان فعله من نوع خاص يعتمد النص الأدبي كمنطلق لممارسة حضوره الفكري والنفسي وتفريغ طاقاته المحرضة على الفعل والإغراء به، ولعل ذلك يجعلها نرى نوعين من الأدباء «الأديب الصدى» الذي يخضع للمجتمع وقيمه فيكون بمثابة الترجمان الذي ينقل ما سمعه أو رآه وقد يتجاوز ذلك إلى تملق المجتمع فيصور ما يرضيه ويروقه، وذلك بعيدا عن «النقد الذاتي» وإدراك الحقيقة، فيكون أدبه وسيلة لتزييف الحقيقة والوعي بها، وهناك «الأديب الثوري» الرائد أو القائد الذي يسعى إلى الكمال فيعمل على تغيير الواقع وإعادة صياغته وفق المصلحة العامة، الشيء الذي قد يجعله يعكس في أدبه صورا يضيق بها المجتمع أكثر مما تعجبه، لأنها تشكف عيوبه ونواقصه وتقدمه في صورته الحقيقية، وهو ما يجعل المجتمع أو طبقة منه على الأقل تنظرإلي هذا الأديب بمنظار الرفض رغم ما يقدمه أدبه من مساهمة في تشكيل الوعي الأمر الذي يؤدي بنا إلى القول بأن علاقة الأديب بمجتمعه هي علاقة تبدو في الظاهر متضادة، بينما هي في

حقيقتها تهدف إلى بناء المجتمع ودفعه نحو التطور والتقدم فالأديب يتسم بالحركة والتطور بينما المجتمع يميل إلى السكون والاستقرار ولعل هذا ما يدفعنا إلى طرح موقف النقد الواقعي من هذا الأدب وطريقة إنجازه لمهامه النقدية الفنية والاجتماعية فما هو النقد الواقعي؟!